

الرحمن الرحيم يفتح باب الرحمة والتوبة



سعة رحمته سبحانه؛ وعظيم لطفه؛ وجزيل كرمه؛ ووافر جوده وحلمه؛ قضية معلومة لكل ذي عقل؛ ولا أدل على ذلك من إمهال الله لأعدائه على كفرهم، فهو يغذوهم ويكسوهم ويكلوهم بالليل والنهار، ويسهل لهم أغراضهم الدنيوية، ويسر لهم مطالبهم المعيشية، وأكثرهم محاربون له ولرسوله، مكذِّبون لرسالاته وكُتَّبه، معتدون على حُرْماته وحدوده.

وتأمَّل فعل النصارى في قولهم: إنَّ الله ثالث ثلاثة. وبعدها دعاهم سبحانه إلى التوبة فقال: (أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَيَّ إِنَِّّي وَاسِعٌ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (المائدة/ 74)؛ بل دعا المسرفين في الخطأ إلى المراجعة، ونهاهم عن القنوط، وأخبرهم أنَّ الله يغفر الذنوب جميعاً، وهو يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) (الأعراف/ 156).

وهو ينادي في الثُّلُث الأخير من الليل: "هل من سائل فأعطيه، هل من مستغفر فأغفر له، هل من تائب فأتوب عليه"، ويقول: "يا ابن آدم! إنَّك ما دعوتني ورجوتني إلاَّ غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم! لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثمَّ لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة"، وغُفِرَ للمرأة البغي من بني إسرائيل لما سقت كلباً يلهث من شدة العطش، وغفر لمن تاب بعدما قتل مئة نفس بغير حقٍّ، وتجاوز عن رجل مسرف لأنَّه كان يتجاوز عن الناس في الدنيا في البيع والشراء، وشكرَ لرجل وغفر؛ لأنَّه أزاح غصن شجرة عن طريق الناس، وعفا عن رجل أتى بتسعة وتسعين سجلاً مملوءة بالخطايا؛ لأنَّه عادلها ببطاقة مكتوب فيها: لا إله إلاَّ الله وهو سبحانه أشد فرحاً بتوبة عبده من فرح صاحب الناقة التي ضلت منه عليها طعامه وشرابه وقد أيس منها ثمَّ وجدها وهو القائل سبحانه: "يا عبادي إنَّكم تذبون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم" (النجم/ 32).

وأخبر سبحانه: أنَّ رحمته وسعت كلَّ شيء، وأنَّه واسع المغفرة، وأنَّه لا يتعاطمه شيء أن يغفره،

وبَيَّنَّ سبحانه أَنَّهُ لا يَبْأَسُ من روجه إِلاَّ القوم الكافرون، ولا يقنط من رحمته إِلاَّ القوم الخاسرون.

وذكر (ص) أَنَّ رجلاً أَذنب ذنباً فقال: "اللّهمَّ إِنِّي أَذنبت ذنباً فاغفره لي فَإِنَّهُ لا يغفر الذنوب إِلاَّ أَنْتَ، ثمَّ أَذنب فقال مثل ذلك، ثمَّ أَذنب فقال مثل ذلك، فقال سبحانه: علم عبدي أَنَّ له ريباً يأخذ بالذنوب ويعفو عن الذنوب، إِنِّي قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء". والمعنى ما دام أَنَّهُ يستغفر كلَّما أَذنب فَإِنَّهُ يغفر له.

وقد صحَّ عنه (ص) أَنَّ ا [] أرحم بعبده من الوالدة بولدها. وَأَنَّهُ سبحانه خلق الرحمة مئة جزء، أَنزل جزءاً واحداً في الدنيا وأبقى عنده تسعة وتسعين جزءاً إِدخرها لعباده في الآخرة، وصحَّ أَنَّ رحمته سبحانه سبقت غضبه، ولما أمر الرجل من بني إِسرائيل أَبناءه بِإحراقه بعد موته وذكر أَنَّهُ يخاف لقاء ا [] ويخشى ذنوبه غفر له، ووعد من فعل فاحشة أو ظلم نفسه ثمَّ استغفره: بالمغفرة وجنات تجري من تحتها الأنهار وتبديل سيئات التائبين حسنات، وورد أَنَّ الندم على فعل الخطيئة توبة، وَأَنَّ الإسلام يهدم ما قبله، بل أخبر أَنَّ مَنْ ظلم نفسه وأساء ثمَّ استغفر ا [] غفر له.

وقال بعضهم: لو لم تكن التوبة أحب شيء إليه ما أُبتلي بالذنوب أحب الخلق عليه، يعني: آدم. وذكر سبحانه عن آدم بعد الخطيئة أَنَّ ا [] اجتباه وتاب عليه وهدهاه، وغفر لموسى خطيئته، ويونس بن متى مغاضبته.

فمَنْ أعظم المنازل عنده سبحانه منزلة التائبين، وقد امتن ا [] بها على النبيِّ (ص) والمهاجرين والأنصار، ومن رحمته بعباده أَنَّهُ أرسل إليهم الرُّسل وأنزل عليهم الكُتُب، وأقام لهم الحجَّة، وبَيَّنَّ لهم المحجَّة، وأعذر لهم بالبلاغ، وأمهل عاصيهم حتى يتوب، وحلم عن ضالهم حتى ينيب، وانظر إلى قوم سبوه وشتموه وألحدوا في أسمائه وحاروا في صفاته، وعطلوا شريعته، وتعدوا حدوده وعصوا أمره، وارتكبوا نهيهِ، ومع ذلك خاطبهم بأرق خطاب، ووعد بالتوبة لمن تاب، وبشر بالمغفرة لمن أَناب، بل يطعم مَنْ عصاه، ويجب المضطر حتى ممَّن حاربه إِذا ناداه: يا ا [] يا ا [].

ولما قسا قلبي وضقت مذاهبي **** جعلت الرجا ربي لعفوك سُلِّماً

تعاطمني ذنبي فلما قرنته **** بعفوك ربي صار عفوك أعظما

فسبحان مَنْ عظم حلمه وجلَّ كرمه، وما أوسع رحمته، وأحسن مغفرته وأكبر ستره ولطفه، فحقيق بالعبد أَن يلتمس رضاه، ويسعى في فكاك رقبتك من عذاب ربِّه بطاعته، وَأَنَّ يُبادر إلى التوبة النصوح كلَّما زلَّ، وَأَنَّ يكثر من الاستغفار والندم على ما فرط منه، وإبدال السيِّئة بالحسنة، وتجديد العودة إلى ا [] بصدق اللجأ، وإخلاص الإنابة، وتجريد التوكل، والطمع في فضله سبحانه، وحسن الظن به، ورجاء ما عنده، وا [] أعلم. ▶

المصدر: كتاب العظامة